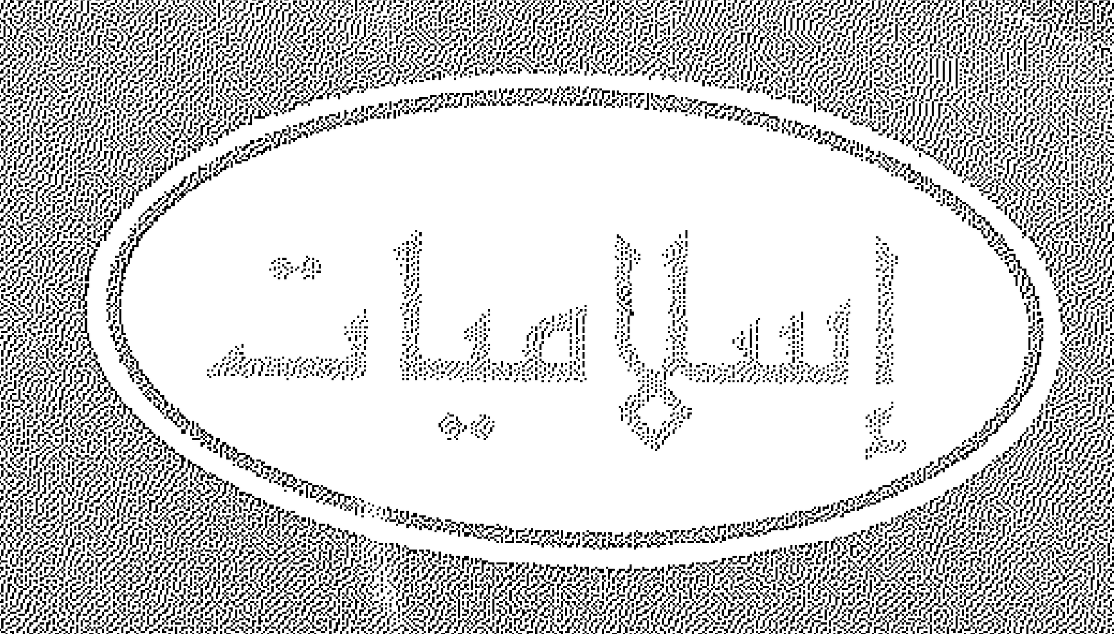


ملامح
التوجيه الإسلامي للعلوم لدى علماء المسلمين

الدكتور عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي
الأستاذ بجامعة الأزهر

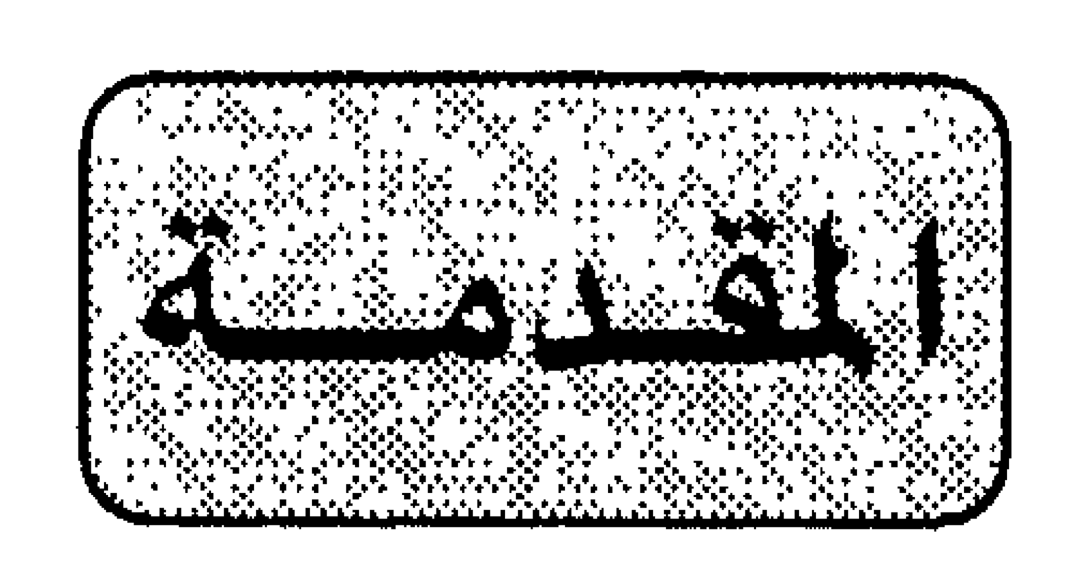


مركز الكتاب للنشر

ملامح
التوجيه الإسلامي للعلوم
لدى علماء المسلمين

الدكتور عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي
الأستاذ بجامعة الأزهر

١٤١٣ هـ
١٩٩٢ م



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذى خلق الانسان علمه البيان، ثم الصلاة والسلام على النبى العدنان، الذى أنزل عليه القران، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وبعـــــــــــــد....

فقد منَّ الله ـ تعالى ـ علينا بدين الإسلام، فأخرجنا به من ظلمات الجهل إلى نور اليقين، ذلك لأن دستور الاسلام هو القران الكريم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأحاديث رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ـ وسنته المطهرة، وهذان المصدران هما النبع الصافى، والأساس الفكرى لصلاح أحوال الناس، عقيدة وسلوكاً فكراًوعملاً، حيث يمتد ذلك ليشمل العلوم الأساسية والتطبيقية، ولقد فهم الرعيل الأول من المسلمين هذه الحقائق، ووضعوها

نصب أعينهم، منذ أن بزغ فجر الحضارة الاسلامية، وانتشر فى الخافقين سناها، واتسع طاقها ونطاقها، ولا غرو فقد تربع على عرشها، وتسنم ذُرَاهَا كثير من العلماء الأفذاذ، الذين انطلقوا فى هذا المجال يحملون ألوية الحق، ومشاعل الهداية، والتنوير، كل هذا بدافع من وحى إيمانهم فحسنت عبوديتهم لله ــ تعالى ـ واستقامت خلافتهم له فى ملكه، وأتتهم الدنيا راغمة، ففى الحديث القدسى «يادنيا من خدمنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه»، فقد تجلت فى أذهانهم شمولية النظرة فضلا عن عمقها، وتأيد ذلك فى الواقع بصدق التطبيق ودقته.

وحينما نجيل النظر، ونعمل الفكر، محلقين فى سماء منجزاتهم القيمة، خلال تاريخهم الوضىء والمضىء، ونتجول فى رياض أعمالهم، نجد نظرتهم الثاقبة، وقناعتهم الكاملة بتواصل عطاءات الفكر البشرى، مع حاجته لهدى السماء، فقد آمنوا بأن العلوم الكونية، والمعارف البشرية، كل ذلك ليس حكراً على شعب دون شعب، ولا وقفاً على أمة دون أمة، وانما هو متاح لكل البشر، ويجب أن يبذل لكل طالب مهما نأت به الدار، أو بعد عليه المزار، من حيث الاستفادة

بمعطيات هذا الفكر، والانتفاع بثمراته، والعمل الجاد على تجويده وإجادته، إسراء للمعارف البشرية والعلوم الإنسانية، ومواكبة لسنة التقدم البشرى فى كل المجالات وشتى الميادين مع الأخذ فى الاعتبار أن كل هذا لا ينقص من قدر المستفيد، ولا يفتات على المبتكر ويغمطه حقه، فالأمم التى تبتكر وتخترع ـ لاشك ـ لها فضل السبق فى هذا المضمار أو ذاك، كما أن الأمم التى تستفيد بهذه الابتكارات والمنجزات تبع فى الفضل لتلك الأمم المخترعة، فكما يقولون «الخير بالخير والبادى أكرم».

وأن الاقتباس والأخذ شيء وارد فى هذا الصدد، ولكن ذلك كله ـ عند المسلم ـ مشروط بالأصول الاسلامية، ومحكوم بالضوابط الشرعية، التى يجب مراعاتها، حتى لا يؤدى كل ذلك النقل والاقتباس الى مالا تحمد عاقبته من النتائج العكسية، فالإطار الإيمانى هو الذى يحكم كل تصرفات المسلم، فهو دائما يتحرك فى الحياة بوحى عقيدته فهو محكوم بها لا حاكم عليها، وصدق الله العظيم إذا يقول﴿وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله﴾ (١).

سورة الحشر (٧)

وسأحاول ـ بفضل الله تعالى ـ إعطاء فكرة مبسطة وميسرة عن منهج علماء المسلمين الاوائل فى الاستفادة من معطيات الفكر البشرى السابقة، وكيف وجهوها طبقا لمقررات عقيدتهم، وتبعا لمتطلبات حياتهم، مع إيراد بعض الامثلة التى تجلى لنا وجه هذه الحقيقة، وهل اقتصر دورهم على الاقتباس والنقل؟ أم تعدى ذلك إلى التجديد والاجادة؟.

مع إطلالة سريعة، وتعريف موجز ببعض مشاهيرهم، من الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسارت بأخبارهم الركبان، وأختم ذلك بمناقشة موضوعية يتضح لنا من خلالها موقف الخلف مُقَارَناً بموقف السلف، وليس كل هذا من قبيل تزكية النفس، والتغنى بأمجاد الآباء، فنحن على ثقة من قول القائل:

ليس الفتى من يقول كان أبى

إنما الفتى من يقول هأنذا

فالذى يقول: كان أبى كذا وكذا ثم يتوقف يكون بهذا قد أساء أبلغ اساءة الى نفسه فضلا عن إساءته لأبيه، أما الذى يقول كان أبى وهأنذا أنسج على منواله، وأنهج نهجة مطورا مجددا محسنا، فهو الفتى الذى يستحق المكانة المرموقة

تحت قبة الفلك، فنحن حينما نـورد هذه الفضـائل فضلا عن غيرها، وغيرهـا كثير فإنما نحاول دفـع عجلة التقدم الـواعى الرشيد، كما نحاول حث الخطـو، ومواصلة السير على الدرب الصحيح، مستعينين بالله، تلهج ألسنتا بالضراعة اليه:

اللهم أرنا الحق حقـاً وارزقنا اتباعـه، وأرنا الباطل بـاطلاً وارزقنا اجتنابه، فـلا حول إلا بك ولا طول إلا منك، وأنت على كل شىء قدير.

المـؤلـف
د .عبدالحكم عبداللطيف الصعيدى
كلية الزراعة ـ جامعة الأزهر

القاهرة ـ مدينة نصر
رجـب ١٤١٣ هـ
ديسمبر ١٩٩٢ م

علماء المسلمين بين النقل والابتكار

إن من الإنصاف والحق أن نقول: حينما أشرقت شمس الإسلام على دنيا الناس، واستضاءت نفوس المسلمين بها، انتشرت من جوانحهم إلى جوارحهم، فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس، أصبحوا أهل حضارة وصناع حضارة، إذ إن مبادىء الإسلام صاغتهم على نحو جديد من الكمال والفضل، ولم يكونوا - كما يروج الماكرون - مجرد نقلة لحضارات الغير، ذلك لأنهم قد أتوا إلى البيت من الباب، لا أنهم تسوروا المحراب، فباب الخير فى كل شىء هو هدايات السماء، فما ينبغى أن يغيب عن ذهن أى مسلم - كما يقول الاستاذ عبد الواحد القاضى -: أن كل ماحققه الانسان من تقدم فى العلوم والمعارف، ومن رقى فى حياته على الأرض، لم يكن ليتحقق منه لولا ماحمله الينا الرسل من مناهج وقيم جعلتهم فعلاً أساتذة البشرية وهداتها. ونقول بحق أن أهل الحضارة الغربية عالة على الحضارة الإسلامية بما حققته من تقدم فى العلوم والمعارف والفنون ،وبما مكنت فى المجتمعات من قيم عظيمة وأخلاق عالية، فأضافوا إلى العلوم والمعارف والفنون بقدر ماسمحت به سنن التطور والارتقاء، وأنقصوا من القيم والأخلاق بقدر استجابتهم لأهوائهم ولوسوسة شياطينهم. وسيأتى يوم قريب إن شاء الله نرث فيه منهم تقدمهم العلمى لنضيف إليه بقدر ماتسمح به أيضا سنن التطور والارتقاء، ولنعيد للقيم عظمتها، وللأخلاق رفعتها وهكذا ستظل عجلة الحضارة تدور بين شرق وغرب حتى يتحقق قول الله تعالى: (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها

حصيـــدا كأن لم تَغْنَ بـــالأمس كـــذلـك تفصل الايـــات لقـــوم يتفكرون(١))(٢).

ونحن حينما نراجع التراث الثرى الذى خلفه هؤلاء الاعلام نجد الألمعية والعبقرية والابتكار مقترنة بأمانة الاقتباس والاصرار على مواصلة المسيرة استيعابا لما هو متاح، فحينما نتصفح كتاب «منافع الاغذية ومضارها «للعلامة الرازى»، تجده قد صوّب فيه كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها «جالينيوس» من قبل، فقد استفادوا فى صنع حضارتهم مما وجدوه صالحا فى حضارات الامم السابقة، والتي قامت بدورها على اثر حضارات سبقتها فى بلاد عرب ما قبل الاسلام، فى وادى النيل والجزيرة العربية وفى وادى الرافدين، ويكفيهم فخرا أنهم وضعوا القواعد الأساسية لهذه الحضارة من وحى عقيدتهم السمحة، وفى ظل تشريعاتها الحكيمة، كما أنهم حافظوا عليها، مما كان له أكبر الاثر فى استفادة أهل الارض قاطبة بها، فإليهم يرجع الفضل فى بعث الحضارة الاسلامية، وانتشارها على أسس ومبادىء ثابتة، حيث نشطت حركة الترجمة والتأليف وهو ما سنوضحه فيما نتعرض إليه من موضوعات.

منهج المسلمين الأوائل فى الاستفادة من المعارف المتاحة

أولا: أسس هذا المنهج:

لقد قام منهج المسلمين الأول فى الاستفادة من المعارف البشرية المتاحة لديهم على أسس ثابتة، قاموا بوضعها نصب أعينهم منذ

(١) سورة يونس آخر الآية رقم ٢٤ .

(٢) أنظر الإسلام والبيئة ص ٥ .

اللحظة الأولى لبعث الحضارة الاسلامية ومازالت ماثلة أمامهم خلال مراحلها المختلفة ونستطيع أن نجمل أسس ذلك المنهج فيما يلى:

١ـ عنايتهم باللغة العربية:

لقد كانت عنايتهم باللغة العربية عناية فائقة، إلى حد أنها كانت اللغة الدولية آنذاك، كما كان التنافس فى إتقانها شائعا وذائعا فى مختلف الأقطار، ذلك لأنها لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الطهور، فكل عناية بها وخدمة لها هى بالدرجة الأولى عناية وخدمة للقرآن الكريم والسنة النبوية الطهور وعلومهما، ومن أبرز أعمالهم وأشهرها فى هذا المجال نشاط حركة الترجمة والتأليف باللغة العربية، وتعريب مرافق الدولة، وهو مايعرف بتعريب الدواوين الحكومية وسك العملة.

«وهى من الاعمال الجيدة التى قام بها الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان، حيث كانت دواوين الشام تكتب باللغة اليونانية، ودواوين العراق تكتب بالفارسية، ودواوين مصر تكتب بالقبطية، فنقلت دواوين الشام والعراق فى زمانه، أما دواوين مصر فقد نقلها إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان فى عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ. وترجع أهمية هذا العمل الجليل إلى أنه بتعريب الدواوين اضطر جميع ساكنى البلاد الإسلامية إلى تَعَلُّم اللغة العربية لغة الدولة الإسلامية كما اصطبغ السكان بصبغة واحدة، كما اصطبغت الدولة بصبغة عربية قومية فى الميادين الادارية والمالية، أضيف إلى ذلك أن تعريف السكة قد خلع على الدولة الاسلامية العربية شخصية الاستقلال»(١).

(١) انظر الجزء الثانى من أعمال الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ـ جامعة بغداد .. بحث الترجمة عند العرب وجذورها ، رمزية عبدالله.

٢ـ العناية بآداب الشريعة:

لقد عُنُوا عِناية فائقة بما جاء فى القران الكريم والسنة النبوية، بحيث أخضعوا لتلك الاداب مختلف جوانب حياتهم السلوكية.

٣ـ الالتزام بمقررات العقيدة الاسلامية:

لقد حرصوا أيضا على موافقة العلوم والثقافات لمقررات العقيدة الإسلامية والسلوك الفاضل، والأخلاق القويمة استمر ذلك فى صدر الإسلام وطيلة عصوره وعهوده الزاهرة فلم تكن حركة الجمع والترجمة نوعاً من النقل الآلى المباشر بقدر ماكانت تنقية وتمحيصاً وتوجيهاً، فقد عملوا جاهدين على تنقية هذا التراث وتمحيصه بالدرجة الاولى للانتقاء والاختيارفما كان من هذه المعارف موافقاً لمنهج الاسلام قبلوه، وما كان غير ذلك عدلوه ليوافق هذا المنهج إن كان يقبل التعديل، وإلا رفضوه بالكلية، وحتى تتضح لنا تلك القضية فسنورد بعض الأمثلة التى توقفنا على حقيقتها فيما يلى:

المثال الاول: فى مجالات الصناعات الغذائية:

هب أنهم ارادوا اقتباس طرق حديثة للصناعات الغذائية أو المشروبات، فإنهم يطلعون على هذه الطرق، ولا يأخذونها قضية مسلمة ولا أمراً واقعاً، وإنما يخضعونها للضوابط الإسلامية، ومقررات الشريعة، فينبغى ألا تختلط بمحرم، كأن تكون قائمة على لحم وشحم الخنزير، كما لايضاف إليها مسكر كالخمر ونحوه، كما لا يقتصر دورهم على سلامة التصنيع وإنما يمتد ليشمل التسويق، فلا يروجون لهذه السلعة أو تلك بطرق غير مشروعة، ولا يتداولونها على أساس الغش والخيانة على نحو ما هو مقرر فى كتب الفقه.

المثال الثانى: فى مجالات تصميم الازياء

اذا أرادوا اقتباس أنواع مـوديلات الأزياء للمجتمع المسلم، فينبغي ألا تختلط بمحرم أيضا، كأن تتخذ من الحرير الخالص المحرم شرعاً، ولا تتخذ حليـاتها كالأزرار من الـذهب، هذا إذا مـا أريد استخـدامها للرجـال، كما يراعى فى تصميمهـا للرجـال أو النساء ـ على أى حال ـ ضوابط ستر العورة، بحيث لا تظهـر الفتنة تصريحات أو تلمحياً كما تثير الغـرائز كل هـذا فضـلاً عن عـدم المغـالاة فيهـا مغـالاة تـؤدى بصاحبها إلى السفه الذى يتجاوز حـد الإسراف ونذكر هذا الموقف ما أثر عن أمير المؤمنين عمر بن العزيز ـ رضـى اللـه عنه ـ وقد بلغه ـ أن ابناً له اشترى خاتماً بألف دينار، فكتب إليه: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين ـ إلى عبد نسى نفسه ودينه، أمـا بعد فقد بلغنى أنك اشتريت خاتماً بألف دينار، فإن كنت ترجو الله واليوم الآخر فبع الخاتم واشتر لنفسك خاتما بدرهمين، وأطعم ألف جائع، واجعل نقش خاتمك «رحم الله امرءاً عرف نفسه».

ثانيا: الطرق المتبعة:

لقـد كـان لعلماء العـرب والمسلمين أسلوب فـريـد فى الاستفـادة بالعلوم والمعارف المتاحة لهم، تجلى ذلـك فى تعهد علوم اليونان والهند وفارس، فعكفـوا على جمعها وتـرجمتها إلى اللغـة العربيـة، ثم قـاموا بتعهدها وإنمائها فى بيئتهم، كما عكف علماؤهم ومفكروهم على النظر الواعى والتأمل الدقيق والتأليف الرصين، أى أنهم قد سلكوا طريقين، طريق الترجمة وطريق التأليف وهو ما نبينه فيمايلى:

● الـترجمـــة

١ـ دوافعهـا:

لقـد كـانت دوافع الترجمة لـدى العرب متعـددة، فمنهـا الـدوافع

الـدينية والاجتماعيـة والثقافيـة والحضاريـة، فنظراً لارتبـاط بعض أحكام الدين الإسـلامى بالظواهر الفكلية، ومعرفـة المواقع الجغرافية للبلدان وحركة الشمس والبروج، ومايترتب على ذلك من ارتباط أوقات الصلاة والصـوم بها، فقد قامـوا بوضع حسـابات وطرق جـديدة لم يسبقهم فيها أحـد بالإضافـة إلى مانقلوه مما عـربوه من الريـاضيات وعلوم الفلك، كما اقتضت حركات التحريـر العربية الإسلامية واتساع رقعة الدولة الاسلاميـة اضطلاعهم بكثير من المهام والمرافق من أوجه العمران المختلفة وتقدمها كإقامة الجسـور وشق الترع وتعبيد الطرق، ممـا جعلهم يعنون بعلـوم الهندسـة والـرياضيـات، هذا فضـلا عن عنـايتهم بـالفلسفـة والفلك والطب والتنجيـم والعلـوم الطبيعيـة والجغرافية.

٢ـ الجهات المعنية بها :

لقد كانت جهود الترجمة منحصرة فى جهتين أساسيتين وهما:

(أ) جهود الدولـة:

وقـد تمثل ذلك فى جهـود الأمـراء الـذين تمكنت هـذه الـرغبـة من نفوسـهم فأولـوها كبير عنايتهم، وقربـوا النابهين من المترجمين اليهم، وأغدقوا عليهم فى العطاء، ومن ذلك ما أثـر عن الرشيد حيث كان يأخذ الجزيـة من أهل الكتـاب كتباً علميـة يـدفعونها اليـه، كما بلغ سخـاء عطائهم أن المأمون كـان يدفع للمترجم أتعابه ذهبا يقـدر وزنه بوزن مايقـدم له من كتب، ومن أشـهر الذين أحضرهـم المأمـون لهذا الغرض (حنين بن اسحاق) فقـد كان يتقن اللغـة اليونانيـة، واستطاع أن ينقل الكثير منها إلى اللغـة العربيـة، فقد تـرجم جميع أعمال «جـالينيوس» الفلسفية والطبية.

كما أوفد البعثـات الثقافيـة لهذا الغرض، فقد اهتـم المأمون بجمع الثقافات الأجنبية القديمـة وبعث وفدا لهذه المهمة إلى امبراطور الروم كى يطلع عليها، ولقـد اضطر القيصر إلى الموافقة على ذلك بعـد امتناع وتردد، وكان ضمن هذا الوفد الحجاج بن مطر وابن البطريق.

(ب) الاهتمامات الفردية:

كما كانت هنـاك جهود مشكورة لبعض الأفراد والجماعـات الذين أخـذوا على عاتقهم شراء الكتب وتـرجمتهـا على أيدى أمهـر التراجمة، وتخصيص الأمـوال اللازمـة لذلك، وكـان عملهم هذا من أهم عـوامل ازدهار الترجمة بـالإضـافـة إلى رعايـة الخلفاء لها، ومـن أشهر الأسر والأفراد الذين تحملوا هذا العبء «أسرة مـوسى بن شاكر» وهم الذين علموا «حنين بن اسحاق» وشجعوه على الترجمة وكذلك الوزير «محمد بن عبد الملك الزيات»، «وسلمـويه بن بنان» طبيب المعتصم، وابن أبى دؤاد وبختيشوع بن جبريل وغيرهم.

● التأليـف:

وكما نشطت حـركـة الترجمة نشطت حـركة أخـرى مـوازيـة لها ومواكبة لها أيضا ألا وهى حركة التأليف فى فروع العلم المختلفة، وهو ماسنورده أثناء حديثنا عن بعـض الأعلام الذين أثروا الحركة العلمية فى هذه الأثناء.

ثالثا: أمثلة تجلى لنا حقيقة هذا المنهج

(أ) فى مجال الطب

قَسَـــــــمُ الأطباء :

لقـد خلق الله الإنسـان بيـديه، ونفخ فيـه من روحـه، وأسجد لـه ملائكتـه، وعلمه الاسماء كلهـا واستخلفه فى أرضـه، وسخر لـه مافى

السموات ومافى الأرض جميعا منه، وفضله على كثير من خلقه قال الله تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ولقد فرضت هذه القيمة العظمى للإنسان على المجتمع إحاطته بسياج من الضمانات التى تستهدف حمايته، فقد رأينا منذ فجر التاريخ أناسا اختصوا بخدمة المرضى والسهر على رعايتهم، فضلا عن محافظتهم على صحة الأصحاء، وإن اختلفت هذه الرعاية من عصر إلى عصر، ومن مصر إلى مصر، تبعا لاختلاف العادات والمعارف والامكانات حتى ان فئة المهتمين بالطب والذين عرفوا بـ (أهل الصنعة) قد وضعوا لهم قواعد فصلوا فيها أنماط السلوك والأخلاق والأفعال التى يجب على من يمارس هذه المهنة أن يلتزم بها، ويراعي بنودها فى احترام تام وتطبيق دقيق، وهذه القواعد هى مانطلق عليه «قَسَم الاطباء».

١ ـ واضع هذا القسم:

أول من وضع هذا القسم هو الطبيب العبقرى اليونانى «أبو قراط» الذى عاش فى الفترة من ٤٦٠ ـ ٣٧٧ قبل الميلاد، وأنشأ مدرسة للطب عرفت باسمه حيث كان أبرز روادها، وذلك فى الجزر اليونانية الشرقية، وأشهرها جزيرة «قوصى» مسقط رأسه، وتجدر الإشارة الى أن هناك أربعة من الأشخاص يحملون اسم «أبو قراط» فى نفس الجزيرة ومن ذات الأسرة، وهم أبو قراط الجد، وأبو قراط الطبيب الذى نتحدث عنه، واثنان من احفاده.

وطبقا لما أورده «بتمان» فإن كتاب أبو قراط وأقواله وأعماله العلمية الطبية قد جمعت بعد وفاته بنحو مائة عام، وذلك عندما طلب حاكم مصر (بطليموس الأول) اقامة مكتبة فى مدينة الاسكندرية تضم الذخائر العالمية، وكان ذلك فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد (٣٢٣ ـ ٨٢٥ ق.م) وقد وجد هذا القسم ضمن مقتنيات هذه المكتبة الجامعة.

٢ـ الفئة التى تؤدى هذا القسم:

لقد كان هذا القسم موجهاً إلى الطلاب الذين يرغبون فى دراسة مهنة الطب، ولم يكن قسماً للأطباء عقب تخرجهم من الدراسة وإبان مزاولتهم لمهنة الطب، كما هو معروف فى دنيا الأطباء أو فى غيرهم من أهل الحرف الأخرى، وهذا يدلنا على أن هذا القسم كان بمثابة دستور لطلاب الطب، ومنهجاً سلوكياً لمن يرغب فى الانضمام إلى هذه المهنة التى تعتبر مادتها الأساسية الانسان ـ أعظم مخلوقات الله تعالى.

ولكى تتضح لنا تلك الصورة أكثر، ويزول من الأذهان مايبدو فيها من غرابة، مردها إلى توجيه القسم للطلاب لا للأطباء، فإن مهنة الطب كانت مهنة أسرية، فقد كان الأطباء تربطهم رابطة القرابة والأصوال العائلية، كما هو معروف فى بعض الحرف السائدة حتى اليوم، ومن هنا فقد كان تعليم هذه الحرفة قاصراً عليهم وعلى أولادهم، فاذا ماأراد إنسان غريب عنهم تعلم هذه المهنة، فان عليه أن يؤدى ذلك القسم، ويوقع على وثيقة تتضمن بنوده إن أراد أن يقتحم هذا الحصن ولم يكن ذلك لوناً من التعسف أو الاحتكار الجائر البغيض، وإنما كان لوناً من ألوان المحافظة على شرف المهنة وأصولها، فضلاً عن كونه ضماناً لسمعة أهلها، فالطالب الذى يوقع على هذا الميثاق الأخلاقى الرفيع، لاشك فى أنه سيتقن هذه المهنة، ويعمل جاهداً على ممارستها طبقا لاخلاقياتها، وتجدر الإشارة أيضا إلى أن مدرسة (أبو قراط) كانت تعنى بطب الحكمة ويطلق على خريجها «حكيم» وهى بهذا تناظر التخصص الحالى والمعروف بعلوم الباطنة ولم يكن أطباء هذه المدرسة جراحين.

٣ـ بنود هذا القسم ومواده :

لقد تعرف العرب على هذا القسم ـ كما ذكرنا ـ خلال حركة الترجمة النشطة التى واكبت الفتوحات الاسلامية، والعمل الجاد على

نقل الثقافات المجاورة إلى الثقافة العربية وقد ورد فى كتاب «الفهرست» لابن النديم، وفى تاريخ الحكماء للقفطى، ومعنى ذلك أننا سننقل ترجمات هذا القسم وهى ترجمات عديدة، ولكننا سنكتفى بذكر واحدة منها نرى أنها موفية بالغرض، فضلاً عن اشتمالها لغيرها من الترجمات، وهذه هى أهم بنود هذا القسم:

١ ـ يقسم بالآلهة على أنه سينفذ ـ وبأحسن مايكون فى مقدوره بنود هذا القسم.

٢ ـ أضع معلمى هذا الفن بمنزلة والدى، وأجعل منه شريكاً لى فى معيشتى وعندما يكون فى حاجة إلى مال سأشركه فى مالى، وأعتبر ذريته مساوين لإخوتى، أعلمهم هذا الفن إذا احتاجوا إلى تعلمه، وبلا أجور وأنقل العلم بالمحاضرة وكافة طرق التعليم لأولادى ولأولاد معلمى، والتلاميذ الذين وقعوا على بنود الوثيقة، وأقسموا الطاعة لقسم الأطباء، وليس لغير هؤلاء.

٣ ـ سوف أستخدم العلاج لمساعدة المرضى على خير ماأقدر وما أحكم، ولن استعمله لمضرتهم، أو خطأ بحقهم.

٤ ـ لن أعطى سماً لأى أحد، ولو طلب منى أن أفعل ذلك، ولن أقترح مثل هذا، وبنفس الشيء سوف لا أعطى «فرزجة» لتسبب الإجهاض.

٥ ـ سأحافظ على حياتى وفنى بكل طهارة وقدسية.

٦ ـ سوف لا استعمل المشرط على الذين يشكون من الحصى، ولكن أعطى المكان لمن هم من رجال الصنعة فى العمل..

وفى هذا اشارة صريحة الى تخصص أطباء هذه المدرسة، وأنهم يحترمون التخصص فيوجهون مرضاهم إلى أهل الاختصاص كالجراحة ونحوها.

٧ـ فى أى البيوت أدخل سأفعل ذلك لمساعدة المريض، وأحفظ نفسى من القيام بأى خطأ مقصود، أو أى ضرر، وخاصة الابتعاد عن الفسق، وكل ماشاهدت أو أثناء ممارستى سوف لن ينتقل إلى الخارج، ولن أفشى سراً، وأعتبر كل هذه الاشياء سراً مقدساً.

٨ ـ والآن إن حافظت على هذا القسم ولن أحنث فيه فليسعدنى الشرف فى حياتى ووقتى بين كل الرجال، وفى كل الأوقات، وإن خالفت وأنكرت قسمى بنفسى فليتنزل على العكس.

ونحن نرى ـ كما هو واضح من عرض بنود هذا القسم ـ أنه قد وضع ليكون عهدا فى أعناق الطلاب الذين يرغبون تعلم صناعة الطب على أيدى الأطباء الذين اشتهروا بها، وبرعوا فيها، وعليهم الالتزام بجميع هذه البنود عند ممارستهم لهذه المهنة، وتعتبر تلك البنود النواة المبكرة لما هو معروف اليوم بـ (ميثاق شرف المهنة) وقد أضيفت إليه بنود وبنود حسبما أسفرت عنه الممارسات من تجاوزات، ولما اقتضته الظروف من ملابسات تختلف باختلاف العهود والعصور.

٤ـ دور علماء العرب حيال هذا القسم:

(أ) دراسته دراسة واعية مع التعليق عليه:

لقد عرف (أبو قراط) لدى العرب بعد عصر الترجمة من اليونانية إلى العربية، وكان ذلك فى القرن الثالث الهجرى، وباطلاعهم على هذا القسم اتضح لهم أنه يشمل على جملة من القواعد والآداب والأخلاق والتى جاءت بها الشريعة الاسلامية، والتى تعتبر فى مجملها ضروباً من مكارم الأخلاق، والنظرة الإنسانية الحكيمة التى تتمثل فيمايلى:

١ـ الامتناع عن القتل أو الإضرار بالغير.

٢ـ العفة والتفانى والإخلاص فى العمل.

٣ـ احترام البيوت وحرمتها وأسرارها.

٤ـ احترام المعلم والوفاء له وفق قواعد البر بالوالدين.

٥ـ احترام أهل الصنعة (المهنة) مع الوقوف على حدود التخصصات المختلفة فضلا عن الحفاظ عليها والاستعانة بأصحابها إذا لزم الأمر، كل ذلك لفائدة المريض ومصلحته، فالطبيب الباطنى لا يصح له أن يتدخل جراحياً، وإنما عليه أن يرشد المريض وأن يدله على جراح متخصص وهكذا.

تناول الأطباء المسلمون العرب هذا القسم بالدراسة الجادة، وعلقوا عليه تعليقات مفيدة ونافعة، كما أضافوا إليه بنودا رأوها هامة أيضا، ومن هذه البنود ما أضافه الطبيب المسلم ابن رضوان عن صفات الطبيب :

١ ـ يجب أن يكون الطبيب كامل الخلق، صحيح الأعضاء، حسن الذكاء ، جيد الرؤية ، عاقلاً ، ذكورا (لاينسى ولا يسهو سهوا فاحشاً).

٢ـ أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة ، نظيف البدن.

٣ ـ أن يكون كتوماً لأسرار المرضى.

٤ـ أن تكون رغبته فى إبراء المرضى آكَدُ من رغبته فى تقاضى الأجر (أى محترفاً).

٥ـ أن يكون مأموناً على الأرواح والأموال، ثقة لا يصف دواء قتالا، ولا يعلمه، ولا يصف دواء يسقط الأجنة ويسبب الإجهاض، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

(ب) الرقابة على الاطباء:

باتساع نطاق مهنة الطب وكثرة المشتغلين بها كان لابد من إخضاعها للإشراف من قبل الدولة، لضمان إتقانها، فضلا عن جديتها، وحتى لاتختلط بغيرها من أمور الدجل والشعوذة، وما يتبع ذلك من تعريض حياة الناس للخطر، وصحتهم للاعتلال بدلا من الاعتدال، ولذلك فقد استحدث فى الدولة الاسلامية نظام الاحتساب (التفتيش) بالنسبة لكل مهنة بما فى ذلك مهنة الطب، ولم يكن المحتسب يقوم بهذا العمل على سبيل الاجتهاد وإنما كانت هناك ضوابط وقواعد يسير عليها كى لا تكون الرقابة تعسفية يحكمها الهوى، وتسير تبعاً للغرض، وعليه فقد وضع المسلمون الأوائل لهذه المهنة من الشروط الرقابية مايضمن سلامتها، ونلخص هذه البنود فيمايلى:

١ـ تحديد من هو الطبيب؟

وهذا الشرط على جانب كبير من الأهمية، فلابد أن يكون الطبيب مؤهلاً ومعه إجازة يمارس المهنة بمقتضاها، وإجازته تتوقف على تقدير معلميه وشهادتهم له، وقد كانت هذه الإجازات معترفاً بها ولها قوة الشهادات العلمية التى تمنحها الدولة، وقد رأينا من الوقائع مايدل على كثير من الدخلاء الذين يمارسون هذه المهنة بدون مؤهلات معتمدين على ذكائهم ومايعرفونه من بعض المعلومات، حتى يفتضح أمرهم بمحض الصدفة فى غالب الأحيان.

٢ـ تعيين رئيس للاطباء، بحيث يمكن الرجوع إليه، كما يقوم بالإشراف على أهل الصنعة.

٣ـ جعل الطب مهنة.

٤ـ يقوم المحتسب الطبى بأخذ العهد على الطبيب.

وكل هـــذا الاهتمام يـدل على شرف المهنــة. وتحلى مــن يمارسـهــا بالصفات الفاضلة وتقوى الله ـ تعالى.

(جـ) وضع الأدعيــة:

وهـذا بـاب طيب يعـد من أنفع الأبـواب التى استحـدثهـا الطبيب المسلم، حيث لم يغب عن وعيه وعن حســه ارتباطه باللـه ولجوؤه اليه ضــارعاً مبتهــلاً لكى يعينــه على ممــارســة المهنة على خير وجــه وأن يعصمه من الخطأ والذلل، ذلك لأن الشافى فى الحقيقة هو الله ـ تعالى ـ الذى قــال فى كتابه «وإذا مرضــت فهو يشفين» وقول الرســول ـصـلى الله عليه وسلم ـــ يرشد الطبيب: « أنت الرفيق واللـه هو الطبيب» وقد وضـع اساطين الطب العـربى مجموعة من الأدعيـة منها ماهــو مطول كدعاء الطبيب «موسى بن ميمون» وكذلك الأدعية المقتضبة.

(د) من صور التزام الطبيب المسلم ببنود هذا القسم:

ولكى يتجلى لنـــا مـــدى تمسك الطبيب المسلم بهذا القسم نصـــا وروحاً فسنـورد تلك الواقعة التى أوردهــا القفطى وابن ابى أصَيْبِعَة، حيث يتضح لنا من خــلالها تمسك الطبيب المسلم بهذا القسم بصـورة واضحة ودقيقة، وهذه هى الـواقعة: طلب الخليفة المتوكل من الطبيب «حنين بن إسحاق» إحضار سم ليقتل به عدوا له، فامتنع حنين وأصر على امتنــاعه، بـالرغم من تهديـد الخليفة لـه بالقتل ، وعنـدما سألـه الخليفة عن سبب امتناعه عن تنفيذ الأمر وتعريض نفسه للخطر أجابه قائلا: لقر منعنى من تنفيذ أمـرك شيئان ياأمير المؤمنين. قال الخليفة: وما هما؟ قال: الدين والصناعة أى مهنـة الطب وشرفها فالدين يأمرنا باستعمال الخير والجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بـالأصدقاء ؟ والمهنة تمنعنــا بشرفها مــن الإضرار ببنى الجنس، لأنها موضــوعـة لنفعهم،

ومقصورة على معـالجتهم، ومع هذا فقد جعل فى رقاب الأطبـاء عهد مـؤكد بأيمان مغلظـة ألا يعطـوا دواء قتالا، فلـم أر أن أخالف هـذين الأمرين الشرعيين. فعفا عنه الخليفة لامانته.

(هـ) ضرورة الالتزام بهذا المنهج:

لقد بـاتت الحاجة مـاسة لإعمال مـاسبق بيانـه من التزام بشرف المهنـة وقسمهـا، والأخـذ بـه أكثـر من أى وقت مضى، حفـاظـا على الأرواح، وصيانة لمكانة هذه المهنة التى تشرف بشرف موضوعها وهو الإنسان، فقـد أصبحنا نرى الصيحات المتعـاقبة، والتيارات الـوافدة التى تهب على هـذه المهنة بغـرض تقويضـــها، فقد أصبح الانسـان مـادة للتجـارب، كما انتشر الإجهـاض، وشـاع الإنجـاب عن طـريق الأنابيب، بل وسمعنـا أخيرا عن بنوك حفظ السائل المنوى بـالتجميد، وتجميد الأجنة وإستخدامها عند الطلب، وكلها أمور تدعو إلى اختلاط الأنساب، ونحن نعلم أن من بين مقاصد الشريعة حفظ الانساب، ومن شر ماتبتلى بـه الأمم بعدها من منهج اللـه سبحانه فقد أصبحنـا نرى من يحاول استحداث تعريف جـديد للموت بطريقـة ملتوية تتيح لهم الانقضـاض على أجساد الأحياء لبقرهـا، والسطو على مابها من أجهزة حية كـالكبد والكلى وغيرهـا، وهو مـاتصدى لـه شيخ الأزهـر وإمام المسلمين الشيخ جاد الحق على جاد الحق حيث أصـدر فتواه الكريمة والمنشـورة بمجلـة الأزهـر فى الجزء الخامـس من السنـة الخامسـة والستين بتاريخ نوفمبر ١٩٩٢م وفيهـا يقرر فضيلته صراحة على أن تعريف الموت بتـوقف القلب عن النبض، وهو مـا أشار إليه القـانون المدنى المصرى فى المادة ٢٩، على الـوجه الـذى صرحت به كتب اللغـة والفقه بعلاماتـه الظاهرة الباترة، هو الـواجب الالتزام به، وأنه يحرم شرعـا، ويمتنع قـانـونا التعـرض للمحتضر بقطع أى جـزء قـاتل من

جسده، قبل انتهاء حياته بظهور علامات الموت سالفة الذكر، فإذا وقع هـذا من أى انسـان على المحتضر قبل استظهار وقـوع الموت بـه بتلك العـلامات كـان قاتـلا إذا انتهت الحياة أو بقيتهـا بهذا القطع ووجب محاكمته جنائياً.

(ب) فى المجالات الزراعية

نظرا لاتسـاع رقعة العـالم الإسلامى بعـد الفتح، واختـلاط عرب الجزيـرة الفـاتحين بغيرهم من سكـان تلك الأقطار، ونظـرا لما أدركـه هؤلاء الأفذاذ بصادق حسهم من تنـوع فى بيئات تلك الأقطار، ومن ثم فقـد أمكنهم التعـرف الـواعى والـدقيق على السـلالات الجيـدة من الحيوانات والنبـاتات، وتوصلوا عن طريق المثـابرة والعمل التجريبى الدؤوب إلى الاستفـادة من كل ماهو متاح فى كثير من أغـراض التربية، ائتماراً بأمر الله إذ يقول : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) [١] ونستطيع أن نلمح إلى أبرز أعمالهم ومنجزاتهم فى هذا المجان على النحو التالى:

١ـ اختيار البيئات المناسبة لبعض السلالات:

قـادتهم خبرتهم إلى التوصـل الدقيق لفهم تـأثير البيئة على كفـاءة الحيـوان والنبات، فقـامـوا ـ من هـذا المنطلق بـالعمل على نقل بعض السلالات الحيـوانية من بيئـاتها الأصلية التـى توجد بها إلى مـواطن أخـرى جديـدة لم تكن قـد نقلت إليها مـن قبل، كنوع من المحـاولات الجادة للاستفادة بها بصورة أفضل عن طريق رفع كفاءتها الإنتاجية والحيوية من جهة، ولإكثار الثـروة فى ربوع الوطن الإسلامى من جهة اخرى، هـذا فضلاً عن استخدام الكثير منهـا فى الأمن الغذائى وتأمين

(١) سورة الملك : ١٥

وسـائل المواصلات، وأدوات الجهـاد كالإبل والخيـول، ومن أعمالهم الحميدة فى هذا الصدد مايلى:

● تم نقلهم للأغنـام من مواطنها الأصلية على شـواطىء البحرين الأسود والأبيض، من تـركيا والشـام والأناضول إلى أسبـانيا والتى كانت تعـرف آنذاك ببلاد الأنـدلس، ولقد جـادت تربية الأغنـام هناك بصورة رائعـة، حتى أصبحت تلك البلاد مـوطناً ممتازاً لإنتـاج أجود أنواع الصوف الناعم والفاخر.

● كما نقلوا الجمل العربى من موطنه الأصلى بالجزيرة العربية إلى كثير من بقـاع العالم وكما يقول الـدكتور عبـد الحافظ حلمى: والابل نوعـان: ذو السنام الـواحد، وذو السنـامين، والأول منهما هو الجمل العـربى وهو منتشر فى شبـه الجزيرة العـربية ويمتـد منها شرقـا إلى الهند، وغربا إلى البلاد المتاخمة للصـحراء الكبرى فى أفريقيا، أما النوع الثانى ذو السنامين فهى الإبل العوامل التى تستوطن أواسط اسيا(١).

فهذه الحيـوانات كـانت تستوطـن الجزيرة العـربية وأنتشرت إلى البقاع المجاورة عن طريق النقل بعد الفتح الإسلامى.

● تم نقل الحصان العـربى من موطنه الأصلى بالجزيـرة العربية إلى كثير من بقاع العالم، كالشام ومصر والأندلس وصقلية وأوروبا.

● كما جلبت الأبقـار والجواميس من مـوطنهـا الأصلى بـالهنـد والعراق والشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس.

٢ ـ اتباع برامج التربية :

من الأمور الملفتة للنظـر حقاً ماقام بـه المسلمون الأوائل من اتباع برامج تربية الحيوان والنباتات بصورة دقيقة وفقاً للأساليب العلمية الحديثة فى التربيـة، فقد عرفـوا تأبير النخل والمحافظـة على السلالات

---

(١) عالم الفكر مجلد ١٢ ص ٩٤ الكويت .

الحيوانية الجيدة عن طريق سجلات النسب التى تصونها من الاختلاط، ونذكر لهم فى هذا الصدد مايلي:

(أ) تربية الخيول العربية:

نظرا لشهرة العرب التى طبقت الآفاق فى الفروسية، فضلا عن حاجتهم الملحة لأقتناء الخيول فى الكروالفر، والحل والترحال، فقد عملوا على اقتناء الخيول العربية لما تمتاز به من قوة ورشاقة، ولهم فى ذلك قصب السبق، فقد كانوا يعنون ببرامج التربية ويحتفظون بسجلات الأنساب، على ماهو مشهور وثابت، ومن الأمور التى ضاعفت من حبهم للخيل واعتنائهم بها وحفاظهم على أصالتها تلك الإشارات السامية التى وردت فى القران الكريم والسنة النبوية الطهور، فقد جاء فى الحديث الشريف: «كل لهو ابن آدم باطل إلا تأديبه فرسه، وملاعبته أهله، ورميه عن قوسه».

ويقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة».

وبهذا اجتمع للعرب فى حب الخيل جهتان، حب من جهة الطبع فهم يحبونها بطبعها وحب من جهة الشرع، على نحو ماحببهم فيها نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وقد أنشد أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد لابن عباس قوله:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها
فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها أناس
ربطناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم
ونكسوها البراقع وَالْجِلَالاَ

وقال بعض الحكماء: ثلاثة لا يأنف الشريف من خدمتهم «الولد والضيف والفرس».

(ب) تربية الحمام الزاجل (حمام الرسائل):

لقد أهتم الخلفاء الفاطميون فى مصر بأمر الحمام وتربيته وتعليمه، فقد أفردوا له ديوانا وجرائد خاصة بأنساب الحمام كما يقول القلقشندى.

والحق أن الحمام وان كانت بعض الشعوب القديمة التى سبقت العرب المسلمين قد استخدمته فإن الشعوب الإسلامية قد وسعت من استخداماته ورياضته كوسيلة هامة من وسائل الاتصال فى السلم لأغراض التجارة وفى الحرب بصورة مكثفة لما لذلك من أهمية فى نقل الأخبار المتعلقة بالأعداء واستعداداتهم، حيث شيدوا له الأبراج والمحطات فى مختلف أنحاء الأمصار والمدن الكبيرة والصغيرة، فضلا عن مناطق الثغور.

وقد عرف العرب هذه الاستخدامات العلمية فى نقل المعلومات البريدية بيسر بواسطة الحمام منذ القرن الثانى للهجرة على أقل تقدير، ويعتبر الخليفة المهدى ـ ثالث خلفاء بنى عباس ـ أول من نظم استخدام الحمام فى البريد الرسمى وكان ذلك فى القرن الثامن الميلادى، أما الخليفة العباسى المعتصم بالله (٧٨٩ ـ ٧٩١هـ) فقد قام بتدريب الحمام الزاجل بشكل دقيق وسريع بواسطة أناس متخصيصين فى تربية الحمام وتدريبه على نقل الرسائل من بغداد إلى الموصل وبالعكس.

والحديث عن حمام الرسائل ذوشجون، وحتى لا نبالغ فى الاستطراد فإننى أود أن أذكر شهادة لعالم الاثار الانجليزى

«هيوبرت برد» أنقلها بتصرف من بحث للاستاذ / عادل محمد الشيخ، ضمن أعمال الندوة القومية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب حيث يقول فيها: ومهما يكن من أمر، فقد ظل الحمام الزاجل يستخدم فى مصر قرونا طويلة قبل أن تفكر أوروبا فى استخدامه رسمياً، وقد أفرد له خلفاء مصر ديواناً خاصاً، وأرسلوا بواسطته رسائل رمزية على قصاصات من الورق الرقيق من القاهرة إلى القسطنطينية والبصرة وغيرها، وعين للحمام الزاجل موظفون عندهم دفاتر بأنساب الحمام، وبعد المسافات التى أرسلت إليها، ولك أن تعجب كيف كان الحمام يحمل الرسائل الهامة إلى ألف ميل من البصرة إلى القسطنطينية ومن بغداد إلى جميع أنحاء العالم العربى، إن الذى اعانه على ذلك هو إنشاء أبراج الحمام على مسافات محددة يبعد بعضها عن بعض خمسين ميلاً على طول طرق القوافل فى جميع الميلاد الإسلامية، قد استخدم التجار الأوربيون فى الاسكندرية الحمام فى نقل الرسائل إلى قناصلهم فى حلب يعلمونهم فيها بمواعيد وصول السفن، وكانت هذه الطيور تأتى بالرسائل إلى حلب فى ظرف ٤ ساعات بدلا من أربعة أيام لو أرسلت بالبريد الأرضى.

كما كان يحتفظ بالطيور لاستخدامها فى وقت الخطر والعدوان على القوافل، حيث كان على رئيس القافلة أن يطلق هذه الطيور اللحظة التى يداهمه فيها الخطر فى الصحراء، لكى يطلب النجدة من آخر مدينة غادرها.

وقد نظم السلطان نورالدين الذى ولى حكم مصر ١١٤٦م نقل البريد الحكومى والرسمى بشكل بديع ومنسق، حيث أنشأ محطات للحمام الزاجل فى أهم طرق الدولة، وكانت هذه المحطات عبارة عن أبراج غاية فى الجمال، يرتفع الواحد منها من ٥ ــ ١٠ أمتار وبعرض

٢٠ ـ ٣٠ مترا مـربعاً مقسمة إلى أعشـاش وملاجىء تحيط بمسـاحة واسعة فى الـوسط خصصت لوضـع الماء والغذاء، وكانت مشيـدة من الخشب، تمثل فناً معمارياً إسلامياً رفيعاً وفريـدا فى بابـه، كما كان ينقش على منقار الحمام اسم السلطان، كما تـوضع على أرجلها أرقام يسهل عن طريقها تمييزها.

وإن كنت أضيف تعليقاً على هـذا الفن، وتلك المهارات، ألا وهـو أن هذه الملكات والعقول المبتكرة قد انطلقت تستجلى غوامض الكون بنور من هدى إيمانها فقـادتها معارفها إلى الخير والـرفعة، فى الـوقت الذى انطلق غيرهم محاولاً تحقيق ذات الهدف ولكنـه أخفق نظـرا لتنكبـة جادة الطريق، فإذا كان «داروين» قـد شطحت به أفكاره لما شاهده فى دنيـا الطيور مـن غرائب وعجـائب فى رحلتـه الشهيرة فقـال بنظريـة التطـور، فإن علماء العرب والمسلمين لم يقـولوا بهذه الترهـات، وذلك لأن فكرهـم معصـوم بمقررات الشـرع، ومن هنا ظهـرت الفروق واضـحة جليـة.

٣ـ دفع عجلة التكامل بين أقطار الأمة الإسلامية:

لقـد استفاد هـؤلاء الأفـذاذ من تنـوع الثروات فى الأقطـار ١٨١٢ الإسلاميـة وتعددهـا استفادة طيبـة فقد أسهم ذلك فى اتسـاع نطاق التبادل التجارى بين أقطار الأمة الإسـلامية، على نحو يمكنه أن نطلق عليه بلغـة العصر (السوق الإسـلامية المشتركـة) أى أنهم بقريحتهم الصافيـة، ونفوسهم التى صـاغها الإسلام على نحـو فاضل فكـانوا يسبقـون عصورهم فى التكـامل والإبتكـار والتفوق، كل ذلك لخدمـة الأوطان وخدمة بنى الإنسان، لا على نحو مايفعله غيرهـم فى هذا الزمن من تكتـلات بغيضـة، هـدفها الأسـاسى احتكـار الأقـوات والأرزاق،

كوسيلة لتجميع العالم وربطه بعد تمزيقه بتلك التكتلات فى مختلف شئون الحياة، كالسوق الأوربية المشتركة وغيرها من تلك المسميات، فهاهى المجاعات تنتشر فى أرجاء كثيرة من العالم إلى حد إبادة الشعوب، وماشعب الصومال عنا ببعيد، وهو شعب مسلم.

٤ـ تأليف دوائر المعارف الزراعية (كتب الفلاحة):

لقد انفرد علماء العرب والمسلمين بتأليف الكثير من كتب الزراعة التى تعرف فى التراث الإسلامى بكتب الفلاحة، وللإنصاف فان هذه الكتب ماهى إلا موسوعات زراعية، حيث كانت تضم اهتماماتهم بمختلف النواحى الزراعية كتصنيف التربة، وطرق الحرث وآلاته، والتسميد العضوى والمعدنى، ومصادر المياه، ومواصفات قنوات الرى، كما ضمنوها أهم العمليات الزراعية الخاصة بكل من محاصيل الحبوب والبقول وأشجار الفاكهة والخضر، هذا فضلا عن عنايتها بالنباتات الطبية وتربية الحيوان وبيطرته من حيث العناية بصحته وعلاجه، كما عنيت بالاقتصاد الزراعى وإدارة المزرعة بل تطرقت إلى تحديد مواصفات العمال الزراعيين، وأفضل طرق تخزين المنتجات الزراعية، وتضمنت أيضا طرق قياس الأرض والآلات اللازمة لذلك، كما وضعوا التقاويم الزراعية الفصلية لاسترشاد الزراع بها، وقد أصبحت كل هذه المسميات أقساماً وتخصصات فى المعارف الزراعية، فلقد كانوا بحق موسوعيين موهوبين وسنقدم فيما يلى بياناً بأهم تلك المؤلفات لنقدر القوم حق قدرهم:

٥ ـ علماء الزراعة المسلمون وأهم منجزاتهم الفلاحية

ونود أن نذكر هؤلاء العلماء مرتبين على حسب الأوطان التى استقروا فيها لا على حسب فترات حياتهم ليكون ذلك أسهل لحصرهم

وربط أعمالهم ببعضها، وليظهر لنا السابق من اللاحق وذلك على النحو التالى:

(أ) فى مصـــــــــر:

١ـــ ابن معانى: هـو أبـو المكارم أسعـد بن مهذب المتـوفى (٦٠٦ هــ/ ١٢٠٩م).

ألف كتاب قوانين الدواوين،وكتاب الفلاحة المصرية.

وكتاب الفلاحة المصرية حققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر ـ القاهرة ١٩٤٣م.

٢ـ المالقــى: ضياء الدين المالقــى أو محمد بن عبد اللــه بن أحمد، المتوفى (٦٤٦ هــ / ١٢٤٨م).

ولد فى مالقــة بالاندلس وسكن أشبيلية، وتجول فى نـواحى المغرب ومصر وأسيا الصغرى، ودخل فى خدمة الملك الكامل الأيوبى.

٣ـــ الوطـواط: أبو عبـد الله محمـد بن ابراهيم بن يحيى، المتـوفى (٧١٨هــ/ ١٣١٨م).

ألف كتاب مناهج الفكر ومنــاهج العبر، وقد نشره المجلس الوطنى للثقافة والفنون والاداب بالكويت ١٩٨١م.

(ب) فى العراق:

١ـ المازنى: النضر بن شميل التميمى المتوفى (٢٠٤ هــ / ٨١٩م).

الف كتــابــاًيحتـوى على الـزرع والكـرم والعنب وأسماء البقـول والأشجار.

٢ـ الأصمعى: أبو سعيد عبد الملك المتوفى (٢١٦هـ / ٨٣١م).

ألف كتاب النخل والكرم، نشره أوغسيت هنفر ١٨٩٨م.

٣ـ ابن الأعرابى: المتوفى (٢٣١هـ / ٨٤٥م)

ألف كتاب الشجر والنبات وكتاب الزرع.

٤ ـ السجستانى: أبو حاتم المتوفى (٢٥٥ هـ / ٨٦٨م).

ألف كتاب الخصب والقحط، ونشره لاغوستيا بالرو، إيطاليا ١٩٧٣م.

٥ ـ سهل بن محمد الجشمى السكرى المتوفى (٢٧٥ هـ / ٨٨٨مـ).

ألف كتاب النبات وكتاب الكرم.

وقد نشر أوغسيت عنفر كتاب النبات ـ بيروت عام ١٩٠٨م.

٦ـ الدينورى: أبو حنيفة أحمد بن داود المتوفى (٢٨٢ هـ / ٨٩٥م).

ألف كتاب النبات.

ولقد قام «لونهارد ليفين أبالا ١٩٥٣م بنشر القسم الخامس منه، كما اهتم به الباحث زلبربرج ١٩٠٨م حيث خصص رسالته للدكتوراه من جامعة «برسلاو» عن هذا الكتاب وعنوانها (كتاب النبات لابى حنيفة الدينورى). اسهام فى تاريخ النبات عند العرب.

٧ـ ابن وحشية: أبو بكر بن على المختار النبطى المتوفى (٢٩١ هـ / ٩٠٣م).

وألف كتاب الفلاحة النبطية.

٨ ـ الحامض البغدادى المتوفى (٣٠٥هـ / ٩١٧م)، وألف كتاب الزرع.

٩ـ المفضل المتوفى (٣٠٨هـ / ٩٢٠م).

الف كتاب الزرع والنبات والنخل.

١٠ـ المفجع البصرى المتوفى (٣٢٧ هـ / ٩٣٨م).

ألف كتاب الشجر والنبات.

١١ـ ابن خالويه: أبو عبد الله الحسين بن أحمد المتوفى (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م).

الف كتاب الشجر، وقام صموئيل بثيرج ــ برلين بنشره عام ١٩٠٩م.

١٢ـ مؤلف مجهول القرن الثامن الهجرى.

المؤلفات:

مفتاح الملاحة لأهل الفلاحة.

نشره محمد عيسى صالحية وإحسان صدقى العمد ـ الكويت ١٩٨٤م.

(جـ) فى الشام:

١ـ قسطوس بن لوقا البعلبكى المتوفى (٢٩٥هـ / ٩٠٨م).

ألف كتاب الفلاحة الرمية، طبع فى مطبعة الوهبية فى القاهرة سنة ١٢٩٣هـ/ ١٧٨٦م.

٢ـ التميمى: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد (من القدس) المتوفى (٣٧٠هـ / ٩٨٠م).

كانت له معرفة جيدة بالنبات وماهيته.

٣ ـ الانصارى: شمس الدين محمد بن أبى بكر (٧٢٧هـ / ١٣٢٧م).

الف الدر الملتقط فى فلاحتى الروم والنبط.

٤ ـ رياض الدين أبو فضل المتوفى (٩٣٥هـ / ١٥٢٩م).

وألف كتاب جامع فوائد الفلاحة، وهو كتاب كبير جامع فى الفلاحة.

٥ ـ النابلسى: عبد الغنى المتوفى (١١٤٣هـ)

لخص كتابا الغُزِّى وسماه علم الملاحة فى علم الفلاحة.

(د) فى الاندلس:

١ ـ أبو القاسم الزهواوى، قرطبة المتوفى (٤٠٤هـ / ١٠١٠م).

ألف كتاب مختصر الفلاحة، طبعه البروفيسوربيرس.

٢ ـ ابن وافد اللخمى، عبد الرحمن، طليطلة المتوفى (٤٦٧هـ / ١٠٧٥م).

أنشأ حديقة نباتية سميت (جنة السلطان) بناء على طلب الخليفة المأمون.

٣ ـ ابن بصال: محمد بن ابراهيم ـ طليطله المتوفى (٤٩٩هـ / ١١٠٥م).

عاش فى طليطلة، وتركها عند سقوطها سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ورحل إلى أشبيليه وقرطبة، عاصر بن واقد وابن الحجاج الأشبيلى وأبو الخير الأشبيلى، وتبادل معهم العلوم والمعلومات الزراعية، كان فى خدمة الخليفة المأمون والمعتمد.

أعماله العلمية:

(أ) كتاب القصد والبيان أو ديوان الفلاحة.

ألفه بتكليف من المأمون، ترجم هذا الكتاب وأعيد طبعه ١٩٥٥م.

(ب) انشأ للمعتصم حديقة ملكية، وألحق بها بستانا يجرى فيه تجاربه الزراعية.

ولقد أخذت أعمال ابن بصال قيمة علمية فريدة لانه اعتمد على الرحلات والتجوال فى بلاد الوطن الإسلامى واضعاً فى ذهنه طبيعة الأرض واختلافاتها وتأثير ذلك على المزروعات فقد رحل رحلات علمية فى بلاد البحر المتوسط خصوصاً مصر والاسكندرية وصقلية، وكل هذا يجعل لكتابه الفلاحة الذى ألفه فى الأندلس قيمة علمية بالنسبة للمناطق التى زارها بالإضافة إلى الاندلس.

٤ ـ ابن الحجاج الأشبيلى: أبو عمرو أحمد بن محمد ــ أشبيلية ـ المتوفى (٤٦٦هـ / ١٠٧٣م) له مؤلفات عديدة من أشهرها:

المقنع،وقد حققه كل من ابراهيم حمد مهاوشى الدليمى وصلاح جرار جابر أبو صفية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢.

٥ ـ أبو الخير الأندلسى الأشبيلى، أشبيلية ـ المتوفى (٤٩٤هـ / ١١٠٠م) ألف كتاب النبات.

وقد اعتمد في تأليفه على نتائجـه وتجاربه الزراعية الخاصة والتى أجريت على ٥٨٥ نـوعا من النباتـات و ٥٠ نوعا من أشـجار الفـاكهة. وكان هذا الكتاب مرجعا لابن العوام، ونشر هذا الكتاب التهامى الناصر الجعفرى.

٦ ـــ الطغزى: محمـد بن مـالك ـــ غرنـاطـة، المتوفى (٥٠١هـــ / ١١٠٧م).

كـان فى خـدمة ابن يـوسف بن تـاشفين، كما اتصل بـابن بصـال واستفاد منه.

ألف زهرة البستان ونزهة الأذهان.

٧ ـ ابن العوام: أبـو زكريا يحيى بن محمد ـــ أشبيليه (٦٠٠هـــ / ١٢٠٠م).

وقد استفاد بجهود العلماء الذين سبقوه كابن بصال والأشبيلى.

وألف كتاب الفـلاحة الذى تـرجم إلى اللغة الاسبـانية ١٨٠٢م، ثم الفرنسية ١٨٦٤م والأردية والتركية.

٨ ـ النجمى: ابو عثمان ـ الحمراء ـ المتوفى (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م).

وألف كتاب أبدأ الملاحة وأنهى الرجاحة فى شغل الفلاحة.

واعتمد فيه على كتب بن بصال والطغزى.

٩ ـ الغرناطى: الحاج أحمد ـ غرناطة ـ مؤلف كتاب فى الفلاحة.

١٠ ـ ابن الفضل الاندلسى ـ غرناطة ـ ألف كتاباً فى الزراعة.

٦ ـ لمحة عن علماء العرب المبرزين فى مجالات الزراعة :

لقد كان للعلماء العـرب إبان ظهور الإسلام وفى الصـدر الأول منه

دور ريادى مـرموق، فقد أسعفتهم قـرائحهم بوضـع القواعـد العلمية على ركائز ثابتة لا يزال معظمها حتى الان فى عداد المراجع، التى يرجع اليهـا علماء العصر الحديث، كل هذا فى إطـار نظـرة شموليـة جعلتهم بحق موسـوعيين، نظرا لما التـزموه فى فكـرهم من الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فراحوا على ضوء هذا الاساس ينقبون عن المعرفـة، موقنين بأن الديـن هو الموجه الأسـاسـى للعقل وراعيه، واضعين نصب أعينهم قول الله تعـالى ـ : «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا».

وسنقـدم إشارات وجيـزة للتعريف ببعض علماء المسلمين الـذين أسـهموا وشـاركـوا بإيجابية فى كثير من الانشطة الزراعيـة، فضلاً عن اسـهامهم فى غيرها من أفرع العلم المختلفة، وذلك فيما يلى:ـ

(أ) الجاحـــــظ:

هو أبو عثمان بن بحر، له مؤلفـات قيمة، من أبرزها كتابه الشـهير «الحيوان» الذى جعل اسمـه يرتبط ارتباطا وثيقـا بعلم الحيوان، وقد اهتم فيـه بـدارسـة كثير من الظـواهـر الفسيولـوجيـة والسلـوكيـة والتصنيفية، وله ابحاث علمية أجراها على بعض الحيوانات.

(ب) ابن سينا: (٣٧٥ـ٤٢٨هـ / ٩٨٠ـ١٠٣٧م) :

هو أبـو على الحسـين بن عبد الله بـن سينا، ولد فى بلـده أنشنة من منطقـة بخارى، يعـد من أكابـر علماء عصره، بل ومن القلائل الـذين تـربعـوا على قمة الفكـر فى تـاريخ الإنسـانيـة حتى الان ويعتبر بحق مؤسس علم وظـائف الأعضاء «الفسيولوجى» وإليـه يرجع الفضل فى تدوين كثير من الحقائق التى ترجمت إلى اللغات الأجنبية، والتى كانت

أساسا للعلم فى جماعات أوروبا قرابة ستة قرون تلت عصره، واذا كان ابن سينا يعرف على أنه طبيب، فإنه مع هذا كان مبرزا فى العلوم الزراعية ومن أبرز أعماله فى مجالات الزراعة مايلى:ـ

١ ـ قام بوصف مئات الأنواع النباتية والحيوانية بدقة وخبرة فائقتين، كما وضع لها الاسماء المناسبة ولذلك فإن علماء العرب يطلقون عليه «لينيوس العرب».

٢ ـ يعتبر أول من أشار أن النبات يشارك الحيوان فى الانفعالات، وبخاصة تلك التى تتصل بالغذاء.

٣ ـ يعتبر أول من أشار أيضا إلى أن العامل المؤثر فى الجنس هو الذكر والأنثى،وهو ما أمكن التعرف عليه حديثا بتقدم علوم الوراثة.

٤ ـ قام بتصنيف الحيوانات إلى مجاميع على أساس التركيب التشريحى لها وهو مايعرف حاليا بعلم التشريح المقارن.

٥ ـ تكلم عن التكافؤ والتناظر.

٦ ـ تناول بالدراسة كثيراً من الظواهر الفسيولوجية التى تتصل بالحيوان كالعقم والأسباب المؤدية إليه وكذلك ردود الأفعال والحركات الإرادية وغير الإرادية.

(جـ) الرازى (٨٦٥ ـ ٩٢٦م) :

أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، ويدانى ابن سينا فى مكانته العلمية ولقد درس تغذية الحيوان ومكوناته الغذائية.

(د) الدميرى:

كمال الدين الدميرى المصرى.

ومن أشهر أعماله مؤلفه القيم «حياة الحيوان الكبرى».

حيث قام فيه بترتيب الحيوانات المعروفة وتصنيفها على حروف المعجم، كما ضمنه كثيراً من المعلومات العلمية القيمة سواء فى مجال وظائف الأعضاء «الفسيولوجى» أو السلوك أو البيئة مما جعل علماء العرب يثنون عليه ويشيرون إليه صراحة على أنه من أهم الأعمال العلمية القيمة.

وهناك ناحية مهمة يجب الالتفات اليها فى هذا المؤلف بخصوص التوجيه الإسلامى ألا وهى أنه قد اهتم فيه بإبراز النواحى الفقهية والأحكام المتعلقة بهذه الحيوانات من حيث الحل والحرمة وهذا عمل غير مسبوق، وتفتقر إليه الكتابات الحديثة عن المملكة الحيوانية.

وهذا غيض من فيض بالنسبة لهؤلاء الأفذاذ.

رابعاً: دور الخلف بالنسبة للسلف

وبعد أن تجولنا فى رحاب هذه الحضارة العريقة تأثرا بغيرها وتأثيرا فيها فحرى بنا أن نقدم رؤية موضوعية نقيم من خلالها هذا الإنجاز الرائع الضخم، لنرى ماصار إليه أمر الخلف بالنسبة لحال السلف، فاذا كان علماء المسلمين قد بلغوا كما رأينا شأواً لايبارى، فى التفكير العلمى والنظرة الواعية الطموح والمستوعبة فأثروا حضارة الإنسان، وكانوا بحق صناع حضارة لامجرد نقلة حضارات، الأمر الذى شهد له وبه العدو قبل الصديق، فقد ألفوا الموسوعات القيمة فى علوم الفلاحة، وفى تربية الحيوان وتدجينه بصورة منقطعة النظير، من نحو ترويض الخيول وتدريب الحمام الزاجل على نقل الرسائل المهمة فى السلم والحرب والتجارة وسائر الأغراض، فهم أول من استخدم سلاح الجو الحى يوم أن كانت الأخبار والرسائل تتعرض للخطر إذا ما سار بها الركبان على الأرض، إشارة إلى قول القائل:

واطـــلبوا المجـــد عـــلى الأرض

فــإن هى ضــاقت فاطـــلبوه فى الســـماء

فهل سار الابناء على درب الاباء؟ أم ماذا ترى؟ ....

وإننا نقـول وفى الحلق غصة ومـرارة: إن الأبناء قد تقـاعسوا عما بدأه الأجـداد فى الوقت الذى نسج فيـه أبناء الغرب على منـوال العرب الأوائل، حيث أخذوا من تراثنا العلمى مقومات حضارتهم المادية حتى وصلوا إلى مستوى أصبحنا نحســدهم عليه فى شتى ميادين العلم بما فيها الميادين الزراعية والطبيـة والفلكية حتى بلغوا القمر ويفكرون فى الوصـول إلى غيره من ضواحى هذا الكـون الفسيح، أخذوا من تـراثنا بأسلوب علمى فى البحث فى الوقت الذى تركنا فيـه تراثنا وراءنا ظهريا إلى حـد أننــا نهون منــه ونتطلع إلى بضــاعـة الغير التـى قـد لا تفى بأغراضنا، فهل سمعنـا عالماً مسلما فى العصر الحديث ـ رجع إلى كتب الفلاحة ليعرف أسرارها ويقوم بالتحقيق والتدقيق لتأصيل مابها من درر علمية؟ نكف أيـدينا فى الوقت الـذى وجدنا فيه البـاحث زلبريرج ١٩٠٨م يحصل على رسالة الدكتوراه من جـامعة برسلاو عن تحقيق كتاب النبـات لأبى حنيفة الدينـورى، وذلك تحت عنوان كتـاب النبات لابى حنيفة الدينورى إسهام فى تاريخ النبات عنه العرب كل هذا وغيره يحتم علينا أن نشكل ثقافتنا العلمية ونصبغها بالصبغة الدينية لتكون على النحو التالى:

١ـ يجب أن نلتزم بما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

٢ــ علينــا أن نواكب الـركب ولا نتخلف عنــه فنبـدأ من حيث أنتهى الاخـرون. مستخـدمين أحـدث ماوصلـوا اليــه من تقنيــة

العصر مع تطويرها لظروفنا المحلية وبخاصة مجالات الزراعة لتحقيق اكتفاء ذاتي من الطعام. الذى بات متحكما فى شتى مجالات الحياة السياسة والاقتصادية والعسكرية.

٣ـ يجب علينا أن نتريث، فلا ننقل إلى علومنا ومعارفنا الإنسانية إلا مايفرضه علينا تراثنا الاسلامى الذى يجب أن نخضع له مختلف جوانب حياتنا السلوكية.

٤ـ علينا أن نحرص كما حرص سلفنا على جعل اللغة العربية لغة قومية وعالمية فى الترجمة والتاليف وتعريب الدواوين وسك العملة، ولا نظل عاكفين على تبنى اللغات الأخرى فان ذلك لايعدو أن يكون لونا من التغريب، وكان من أثره أن جنينا على اللغة العربية جناية كبيرة فاصبحت ترى المسلم العربى لايعرف الفاعل من المفعول فى الوقت الذى نجده يتقن اللغة الانجليزية أو غيرها اتقانا، هذا فضلا عن التعصب للنظريات الوافدة مما يصدق عليه قول القائل:

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلبا خاليا فتمكن

وصدق الله إذ يقول :

﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

المراجع

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ السنة النبوية.

٣ـ الندوة القومية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة بغداد، مركز احياء التراث العلمي العربي ١٣ ـ ١٥ شباط ١٩٨٩م.

٤ـ كتاب الحيوان للجاحظ، طبعه الحلبي بالقاهرة.

٥ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى، طبعه الشعب بالقاهرة.

٦ـ معجم البلدان لياقوت الحموى .

٧ـ التربية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الاوروبية. د. سعد عبد الفتاح عاشور.

دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٣م.

٨ـ أصل الانواع، تشارلز دارون ترجمة اسماعيل مظهر.

مكتبة النهضة ـ بيروت ـ بغداد.

٩ـ عالم الفكر، مجلد ١٢ ص ٩٤، وزارة الإعلام بالكويت.

١٠ـ مجلة الفيصل ـ العدد الأول، السنة الأولى ص ٩٣ ومابعدها ـ يونية ١٩٧٧.

١١ ـ البيئة فى الفكر الانسانى والواقع الايمانى، للدكتور عبدالحكم عبداللطيف الصعيدى ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٩٣ م .

١٢ ـ الحشرات فى القرآن والسنة والعلم الحديث ، للدكتور عبدالحكم عبداللطيف الصعيدى ، دار الكتاب للنشر ، ١٩٩٣.

الفهرس

● قسم الاطباء

١ ـ واضع هذا القسم

٢ ـ الفئة التى تؤدى هذا القسم

٣ ـ بنود هذا القسم ومواده

٤ ـ دور علماء العرب حيال هذا القسم

(أ) دراسة واعية مع التعليق عليه

(ب) الرقابة على الاطباء

(جـ) وضع الادعية

(د) صور التزام الطبيب المسلم ببنود هذا القسم

(هـ) ضرورة الالتزام بهذا المنهج

ب ـ فى المجالات الزراعية

١ ـ اختيار البيئات المناسبة لبعض السلالات

٢ ـ اتباع برامج التربية

(أ) تربية الخيول العربية

(ب) تربية الحمام الزاجل (حمام الرسائل)

٣ ـ دفع عجلة التكامل بين أقطار الامة الاسلامية

٤ ـ تأليف دوائر المعارف الزراعية (كتب الفلاحة)

٥ ـ علماء الزراعة المسلمون وأهم منجزاتهم الفلاحية

(أ) فى مصر

(ب) فى العراق

(جـ) فى الشام

(د) فى الاندلس

٦ ـ لمحة عن علماء العرب المبرزين فى مجالات الزراعة

(أ) الجاحظ

(ب) ابن سينا

(جـ) الرازى

(د) الدميرى

رابعا : دور الخلف بالنسبة للسلف

٤ ـ المراجـــــــع

رقم الإيداع ٥٦١٩ / ٩٣
الترقيم الدولى : I . S . B . N : 977 - 52 / 5 - 11 - 0

دار ماجد للطباعة
ت : ٨٢١٢٣٨